مصادر الدرس الصوتي في التراث اللغوي القديم (عرض وتحليل)

م. د رياض قاسم حسن - مديرية تربية ميسان

Sources of phonetic lessons in ancient linguistic studies ((presentation and analysis

Dr. Riyad Qasim Hassan / Directorate of Education in Misan

riyadqasim81@gmail.com

المستخلص

اهتمّ العرب في الدراسة الصوتية اهتماماً كبيراً ؛ بسبب ارتباط هذه الدراسة بعلم التجويد إذ إنّ بدايات الدراسات اللغوية اعتمدت على مصادرها الأساسية ومنها: القرآن الكريم، والقراءات القرآنية، الشعر العربي الذي شمله عصر الاحتجاج اللغوي في المستويات اللغوية كافة كـ (المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي) ، فالمستوى الصوتي يعدُّ من أهمّ المستويات والجوانب العلمية التي أصبح لها تأثير واضح؛ لأنّ الدرس الصوتي غايته العناية بدراسة مصادر الدرس الصوتي، فهو الدرس الثّـر الذي يدرس أصوات اللغة من حيث مخارجها وصفاتها ووظائفها، إذن هو الدرس الذي يعتمد على المصادر القديمة من العلماء القدامى كـ (الخليل بن أحمد الفراهيدي و سيبويه، وابن جنّي إلخ...) ، فضلاً عن المصادر الحديثة ، مثل: اللسانيات وعلم الفونولوجيا وعلم الصوتيات.

الكلمات المفتاحية (الصوت ،المصنّفات الصوتية ، المصنّفات المعجمية ، المصنّفات النحوية ، المصنّفات الصرفية) .

Abstract

Arabs paid great attention to phonetic due to their connection to the ،studies science of Tajweed. The beginnings of linguistic studies relied on their including the Holy ،primary sources and ،Quranic recitations ،Quran which encompassed ،Arabic poetry the era of linguistic argumentation at ،all linguistic levels (phonetic and ،syntactic ،morphological semantic). The phonetic level is one of the most important levels and and it has had a ،scientific aspects clear impact. Phonetic studies aim to focus on studying the sources of phonetic studies. It is the rich pearl that studies the sounds of the language in ،terms of their articulation

and functions. ،characteristics it is the pearl that relies on ،Therefore ancient sources from ancient scholars Ibn ،Sibawayh ،such as Al-Farahidi in addition to modern ،etc. ،Jinni ،sources such as linguistics .and phonetics ،phonology

(sound ،Keywords phonetic ،classifiers ،lexical classifiers ،grammatical classifiers ،morphological classifiers).

مقدّمة

اهتم العرب بالقرآن الكريم منذ نزوله على الرسول الأمين محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، فحفظوه وتلوه أحسن تلاوة ، وازدادت العناية به؛ لمّا دخلت الأقوام المختلفة الأجناس إلى الإسلام التي كان من آثارها فشوّ اللحن وتسرّبه إلى الألسنة ، فوضعوا أولاً علم النحو، وكانت الدراسات الصوتية مختلطة معه، كما هو الحال في كتاب سيبويه الذي أفرد له باباً خاصّاً، كما كان للخليل جهدٌ بارزٌ في تقسيمه للأصوات وبيان مخارجها، اعتماداً على الحسّ الصوتي الفريد الذي انفرد به في التقسيم، وسار عليه علماء الصوت بعده متخذين تقسيم الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) للأصوات طرائقا ومنهجا في التقسيم الصوتي، ثم باتت جهود علماء الصوت واضحة وممنهجة إذ وضعوا علوماً عديدة للصوت كعلم التجويد، الذي حافظ على نطقها في القراءات نطقاً سليماً لأصوات القرآن الكريم، إذ تحدّث الفرّاء عن مخارج الحروف ووصفوها وصفاً دقيقاً، وبيّنوا علاقتها بما يجاورها مع توضيح أثر هذا التجاور، فجهودهم في الدرس الصوتي تنمّ عن فهم مبكّر دقيق لطبيعة الصوت اللغوي ، وهذا يدلّ على تمكّن العرب من المعرفة المكتملة للجهاز الصوتي والأعضاء الخاصّة به، فقد واصلوا باستمرار على دراسة الأصوات اللغوية ووصفوها وصفاً دقيقاً ، مما يدلّ على ذوقهم المرهف وشفافيته، فجاءت جوانب كثيرة من دراستهم علمية ودقيقة. (1) .

وتحسن الإشارة إلى أنّ البحث الصوتي العربي لم يضمه مصدر واحد، ولم يتناوله عالم واحد، ولكنه تناثر بين طيات مصنّفات علوم العربية ، كالصوت والنحو وعلم الصرف وعلم التجويد وعلوم البلاغة وإعجاز القرآن والمعاجم، " وتعدّد العلماء الذين شاركوا في إقامة صرحه وتوطيد بنيانه "، (2) وكلّ ذلك يدلّ على " عناية القدامى وتعلقهم بهذا الميدان لأهميته وأثره الفعال في تفسير كثير من الظواهر اللغوية "(3).

ومن الأعلام الذين ضربوا بسهم وافر في عدّة نواحٍ من الدراسة اللغوية، وكانت لهم اليد الطولى في تأسيس التراث الصوتي، والذين لا تزال تفتخر بهم الأمة العربية ومنهم : الخليل بن أحمد

الفراهيدي (ت175هـ)، وسيبويه (ت180هـ)، وقطرب (206هـ)، وابن جنّي (ت392هـ) ، وابن سينا (ت428هـ) ، وابن سنان الخفاجي (ت466)، والزمخشري (ت538هـ)، والسّكّاكي (ت626هـ)، إلى غيرهم من الأفذاذ، والعلماء الأجلاء الذين واصلوا المسيرة العلمية عبر القرون، شعوراً بمسؤولياتهم تجاه أمتهم وأجيالها لتنكب على تعلم لغتها وتدارسها والاعتزاز بها .، ولأجل الإحاطة بهذا العلم الثّر، آثرنا أنْ نقسّم الحث على محاور منها:

المحور الأول : تعريف الصوت اللغوي ومصادره

يمكن تعريف الصوت من وجهة لغوية بأنّه الجرس، وجمعه أصوات ، إذ قال ابن السّكّيت : "الصوت صوت الإنسان وغيره ، والصائت : الصائح ، ورجل صيّت : أي شديد الصوت" (4). ورجل صائت : حسن الصوت شديدة ، وكل ضرب من الأغنيات صوت من الأصوات". (5)

وتعريف الصوت مرتبط بأبعاده وموارده ، ومتعيّن بتقييده بمراده ، وقد أعطى الراغب الأصفهاني (ت502هـ) خلاصة دقيقة لهذه المصادر، بعد اعتباره الصوت الهواء المنضغط عن قرع جسمين ، وهما ضربان : صوت مجرّد عن تنفّس بشيء كالصوت الممتدّ ، وتنفّس بصوت ما ، والمتنفّس نوعان : غير اختياري كما يكون من الجمادات والحيوانات ، ونوع اختياري كما يكون من الإنسان ، وهو ضربان :

1 ـ ضرب باليد ، كصوت العود وما يجري مجراه .

2 ـ ضرب بالفم في نطق وغير نطق .

فالمنطوق منه : إمّا مفرد من الكلام ، وإمّا مركّب كأحد الأنواع من الكلام ، وغير النطق : كصوت الناي. (6)

المصادر الصوتية القديمة

على الرغم من تناثر الدراسة الصوتية في مصادر مختلفة من التراث العربي، وكثرة العلماء والباحثين في هذا الميدان، إلا أنه لم يظهر مصدر مستقل يجمع شتات القضايا الصوتية وضم متفرقاتها إلا في فترة متأخرة من مسيرة البحث اللغوي العربي، وذلك على يد ابن جنّي (ت392هـ) في كتابه (سرّ صناعة الإعراب)، ولدى ابن سينا (ت428هـ) في رسالته الشهيرة (أسباب حدوث الحروف) . وقد يرجع سبب هذا التأخّر إلى " طبيعة المنهج اللغوي قديماً في معالجة جوانب الدرس اللغوي بين دفتي المصدر الواحد، إذ لم يكن هناك فصل دقيق بين فروع الدراسات اللغوية". (7) وفيما يأتي ذكر العلماء الصوت بعد سيبويه.

أولاً: جهود ابن جنّي (ت392هـ) في الدراسة الصوتية: يُعدُّ ابن جنّي من أوائل اللغويين بحثا في علم الصوت ، فقد نظر إلى المبحث الصوتي بأنّه علمٌ خاص قائم بذاته، كما يعدّ ابن جنّي من الذين وضعوا المصطلحات اللغوية الدالة على هذا العلم، وهذا ما يوضّحه قوله في كتابه سرّ صناعة

الإعراب، وقد أشار إلى أولويته في هذا الفنّ بقوله :" وما علمت أنّ أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع ". (8)

وهذا يعني أنّ كتابه لم يكن جمعاً لآراء السابقين وأفكارهم، وإنّما تميّز بالإضافات الجادّة والدراسة الواسعة التي تعبّر عن نظرته العلمية الصائبة ودقتّها الفائقة، فقد اتّضح أنّ علم الصوت هو من العلوم اللغوية المهمّة التي يجب على كلّ عالم لغة أنْ يضعها في اعتباراته الخاصّة (9). ويربط ابن جنّي بين علم الأصوات وعلم الموسيقى، بقوله: " إنّ علم الأصوات والحروف له تعلّق، ومشاركة للموسيقى، لما في صنعته الأصوات والنغم". (10) .

و يمكن إجمال خصائص الكتاب الصوتية بما يأتي :

1_ إعطاؤه المفهوم اللغوي للصوت والحرف، والفرق بينهما.

2_ ذكره لعدد الحروف الهجائية العربية وترتيبها وذوقها. والحديث عن مخارجها وبيان صفات الحروف وتقسيمها أقساماً مختلفة.

3_ التغيّر الذي يطرأ على بنية الكلمة فيؤدّي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف.

4_ ائتلاف الحروف بعضها مع بعض لتكوّن الكلمات، وأثرها في فصاحة اللفظ التي تقوم على أساس تباعد مخارج الأصوات. (11)

ثانيا: جهود ابن سينا الصوتية (ت 428هـ)

ركّز ابن سينا في رسالته (أسباب حدوث الحروف) على الجوانب التشريحية و الفيزيائية للأصوات أكثر من تركيزه على الجوانب اللغوية ، ويقف وراء هذا الموقف أسباب عديدة أبرزها تخصصه في الفلسفة والطب ما جعله يذهب هذا المذهب من النظرة إلى علم الصوتً.

فهو يعرف الصوت اللغوي بقوله: " أظنّ أنّ سبب الصوت القريب تموّج الهواء دفعة وبقوّة وبسرعة من أيّ سبب كان ". (12)

ويحيل بهذا التعريف إلى البحث في ظاهرة فيزيائية هي الموجات الهوائية، فالسبب القريب هو تموّج الهواء والسبب البعيد هو علّة تموّج الهواء المتمثلة إمّا في القرْع وإمّا في القلع ، ويقول عن الحرف: " هو هيئة للصوت عارضة لها، يتميّز بها عن صوت آخر مثله في الحدّة والثقل تميّزاً في المسموع ". (13) وقد اشتملت الرسالة على ستّة فصول تضمّنت ما يأتي :

1_ حديثه عن سبب حدوث الصوت والحرف.

2_ خصّص هذا الفصل لمخارج الأصوات ومحابسها، ويقدّم فيه صفات الأصوات الثقيل منها والحاد، وخفوت الصوت وجهره، والصوت الأملس، والصلب المتخلخل .

3_ يعرض فيه مكوّنات الحنجرة واللسان.

4_ يبيّن ابن سينا في هذا الفصل كيفية صدور كلّ صوت من أصوات العربية، ويصف العملية

العضوية في إنتاجه، ويرتّب الأصوات بحسب مخارجها على شاكلة الخليل بن أحمد الفراهيدي.

5_ تحدّث فيه عن أصوات سمعها في لغات أخرى غير العربية مثل السين الزائية والزاي السينية والزاي الظائية والفاء الشبيهة بالباء.

6_ أمّا الفصل الأخير فقد جعله لكيفية إنتاج أصوات بحركات غير نطقية كالشين التي تُسمع عن نشيش الرطوبات، والطاء التي تحدث عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان.

وجوهر القول: إنّ الرسالة درّة ثمينة استطاع أن يوائم بها ابن سينا بين علم الطبيعة و علم اللغة، فتكشف عن أسرار غامضة مازالت من صميم الدراسة المعاصرة كظاهرة التموّج الفيزيائية، وكثافة الهواء في كلّ موجة ، وشكل الموجة، وما يترتب عنه من صوت.

وهكذا يكون قد انفرد بحقائق له فيها فضل السبق والاكتشاف بعد الخليل وسيبويه وابن جنّي على عكس أولئك الذين أعادوا صياغة ما قاله سابقوهم وقد أثنى إبراهيم أنيس على هذه الرسالة بقوله: " ولما وقفنا على هذه الرسالة منذ بضع سنوات استرعى انتباهنا أنّها تعالج طرفاً من الدراسة الصوتية اللغوية علاجاً فريداً يختلف اختلافاً بيّناً عن علاج سيبويه وأمثاله من علماء العربية " . (14)

و يتّضح ممّا سبق أنّ الدراسة الصوتية العربية تناثرت في مصنّفات عديدة ومتنوعة، إذ يعثر عليها الدارس في مصادر القراءات والبلاغة وإعجاز القرآن والنحو والصرف والمعاجم العربية .

وممّا تجدر الإشارة له أنّ الباحث في الدرس الصوتي لا يستطيع الوقوف على مصدر مستقل في هذا المجال إلّا ما ندر ، لا سيّما ما نجده عند ابن جنّي في (سرّ صناعة الإعراب)، وابن سينا المشار إليهما سابقا.

المحور الثاني : التراث الصوتي في المصنّفات المعجمية

إذا كان العلماء العرب قد حدّدوا المخرج من حيث أنّه المنطقة التي يولد فيها الصوت اللغوي ، فإنّ أصحاب المعجمات يُعدّون من أوائل العلماء العرب الذين حدّدوا بدقّة مخرج الصوت مُتمثّلين بالخليل بن أحمد الفراهيدي إذ إنّه أطلق على المنطقة التي يولد منها الصوت اللغوي اسم (المخرج) ، فضلا عن المسميات الأخرى " الحيّز والموضع والمدرج " . (15) وبهذا يكون للخليل الفضل في الدراسة الصوتية، فهو أوّل مَن وضع اللبنة الأساسية لعلم الصوت العربي، وهو ما تجلّى في مقدّمة كتاب العين، التي حملت المهاد والمنطلق للمعلومات الصوتية التي لم تدرك إلّا فيما بعد عصر الخليل كما يرى محقّقا معجمه. (16)

وبهذا تُعدّ المعاجم العربية من مصادر التراث الصوتي ؛ لأنّها زخرت بفيض هائل من الفكر الصوتي، وقد تناولت القضايا الصوتية إمّا في

المقدمة أو في ثنايا المادّة اللغوية المجموعة في بداية كلّ حرف من حروف المعجم .

أولا: معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 180هـ)

لقد تناول أصحاب المعاجم مخارج الأصوات باهتمام كبير وجعلوا من ذلك المرتكز الأساس في التصنيف المعجمي ، فقد اعتمد الخليل على الترتيب المخرجي اعتمادا كليّاً في رصد الألفاظ العربية وبناء معجمه (العين) على وفق مخارج الحروف، إذ إنّ تناوله لهذه المخارج يستند إلى رهافة حسّه وخبرته في تذوّق الأصوات العربية .

وبذلك احتلَّ هذا المعجم مكانة متميّزة في اللغة العربية بوصفه أوّل معجم عربي، إن لم يكن أوّل معجم عالمي، ينظر بطريقة علمية دقيقة اعترف بها في ميدان الدراسات اللغوية المعاصرة، فقد اهتدى إليها الخليل بفكره الثاقب وموهبته النادرة وعلمه الواسع .

وجاء تأليف معجمه مناسباً لمدارج الجهاز الصوتي انطلاقاً من الحلق إلى الشفتين، وذلك تبعاً لطريق مخرج الكلام الذي ينطلق بطبعه من الداخل إلى الخارج، فكان الخليل يتذوّق الحروف بفتح فمه، ثمّ ينطق بالألف ويظهر الحرف نحو: " أبْ- أتْ- أخْ- أعْ "، (17) إلى نهاية كلّ الحروف، فتم اختياره بداية الترتيب بالعين التي جعلها أوّل الكتاب، ثمّ ما قارب منها، الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها، فتوصّل إلى الترتيب الآتي: " ع ، ح ،هـ ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج، ى ، ش ، ض ، ص ، س ، ز ، ط ، د ، ت ، ظ ، ث ، ذ ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و، ي ، الهمزة". (18)

وقد رسم الخليل الطريقة التي " يمكن بها معرفة مخرج الصوت، وكان في ذلك موفّقاً كلّ التوفيق إلى حدّ أنّ علم الأصوات الحديث يعترف بكثير من آرائه ومقاييسه الصحيحة ".(19)

لقد كان الخليل دقيقا في وصف مخارج الحروف وصفاتها وتدرّجها في المخرج ، وتقاربها فيه، يقول: " أقصى الحروف كلها العين ثمّ الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثمّ الهاء، ولولا هتّةٌ في الهاء.. لأشبهت الحاءَ لقرب مخرج الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض". (20)

ويرى الفراهيدي أنّ " الألف في اسْحَنك واقشعرّ واسْحَنْفَرَ واسْبَكَرَّ ليست من أصل البناء. وإنّما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً وسُلَّماً للسان إلى حرف البناء، لأنّ اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل، إلّا أنّ دَحْرَج وهَمْلَج وقرطس لم يحتج فيهن إلى الألف لتكون السُلَّمَ، فافهم إن شاء الله ". (21)

ويتحدّث عن سمات البناء اللغوي، فقد بيّن أنّ كلام العرب يرتكز على أربعة أصناف ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ، ويرى أنّ الكلمة

الرباعية والخماسية إن لم تكن محتوية على حرف من أحرف الذلاقة تحتوي على حرف من أحرف الذلاقة أو الأحرف الشفوية فهي ليست من الكلام العربي. حيث يقول: " فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الأذلاق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب لأنّك لست واجداً مَن يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلّا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر"، (22) إلى غير ذلك من الأفكار والتعليلات والابتكارات التي ظلت المنار والطريق المُعبّد الذي يهتدي إليه علماء اللغة والعلوم العربية عامّة. (23)

إنّ ترتيب الأصوات بحسب مخارجها يعدّ من الأمور الغريبة عن العرب في ذلك الوقت، ونجد من العلماء العرب مَن سار على نهج الخليل في وضع الأبجدية الصوتية العربية مع تسليمه بصعوبتها، فقد تابعه في ذلك أبو علي القالي (ت356 هـ) في المنهج والطريقة ولم يخرج عنه إلا في بعض الأمور القليلة التي لا تقلل من هيمنة منهج الخليل على منهج القالي في معجمه (البارع) من ذلك تسلسل الأصوات ، فقد جاء مختلفا من حيث تقدير مخرج الصوت فأدّى ذلك إلى التقديم والتأخير ، حيث نرى ترتيب الحروف عن القالي (هـ ، ح ، ع ، خ، غ ، ق ، ك ، ض ، ج ، ش ، ل ، ر ، ن ، ط ، د ، ت ، ص ، ز ، س ، ظ ، ذ، ث ، ف ، ب، م ، و ، ا ، ي) .

فمن هذا الترتيب يظهر أنّه وضع الأحرف الذلقية (ل ، ر ، ن) قبل الأحرف اللثوية (ظ، ذ، ث) مع تقديم الراء المكرّرة على اللام ، ووضع الأحرف النطعية (ط، د ، ت) قبل الأحرف الأسلية (ص ، س ، ز) مع تقديم الزاي على السين من حيث المخرج الصوتي، فضلاً عن أنّه وضع العين وهو الصوت الحلقي في الترتيب الثالث من حيث التدرج في المخرج ، ونجد أنّه قدّم الضاد على الجيم والسين .

إنّ تلك الاختلافات في ترتيب مخارج الأصوات عند الخليل يمكن أن تحمل على تذوّق الأصوات والنظر إلى خصائصها ومميزاتها فكلّ عالم يتذوّق الأصوات بحسب حسّه الموسيقي وإدراكه لموسيقى الأصوات التي تؤدّي إلى تقديم الأصوات بعضها على بعض ذلك التقديم الذي لم يكن على درجة كبيرة من التفاوت؛ لأنّه كان في ضمن نطاق المخرج العام من نحو تقديم الأصوات الذلقية بعضها على بعض، وهذا ممكن في الدرس الصوتي ، لاسيّما إذا كان هناك جامع مشترك يحصر هذه الأصوات ، يضاف إلى ذلك التقديم والتأخير لمجموعة على مجموعة أو لمخرج على آخر ،وهذه المسألة تحتاج إلى نظر لإمكان خضوعها لدرجة الاختلاف العلمي أو الصوتي ولإمكان تعرضها للصواب أو الخطأ فلا يمكن بحال

من الأحوال أن يشمل تذوّق الأصوات مجموعة كاملة .

ثانياً: معجم تهذيب اللغة للأزهري (ت370هـ)

لقد تابع الأزهري الخليل والقالي في اعتماده النظام المخرجي في ترتيب الأصوات فبدأ بالأصوات من أقصاها مخرجا وهي أصوات أقصى الحلق إلى آخر الأصوات وهي على النحو الآتي :

" ع ، ح ، هـ ، خ ، غ / ق ، ك / ج ، ش ، ض / ص ، س ، ز / ط ، د، ت / ظ ، ذ ، ث / ر ، ل ، ن / ف ، ب ، م / و ، ا ، ي " ، وقد أطلق الأزهري على هذه الأصوات الألقاب عينها التي أطلقها الخليل فشملت الأصوات الحلقية وتضمّ(ع ، ح ، هـ ، خ ، غ) والأصوات اللهوية وتضم(ق ، ك) وهكذا الألقاب الباقية التي تخصّ الأصوات الأخرى من نحو الأصوات الشجرية والأسلية والنطعية واللثوية والذلقية والشفوية والهوائية وهي ألقاب الخليل عينها. (24)

ثالثا: معجم المحيط في اللغة للصاحب بن عبّاد(ت385 هـ)

ويأتي بعد هؤلاء الصاحب بن عباد الذي تأثر بالخليل تأثراً كبيراً وبيّن منهجه الذي سار فيه على منهج الخليل فقال: "اعلم أنّ الخليل لما هم بجمع كلام العرب أجال فكره فيما يبني عليه كتابه، ويدير عليه أبوابه ،فنظر في الحروف كلها وذاقها ووجد مخرج الكلام كله من الحلق، أوله العين فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع، وهذه صورة الحروف على الولاء، وذكر نسبتها إلى مخارجها وهي تسعة وعشرون حرفا "(25) ، والترتيب الصوتي لأبجدية الصاحب بن عباد هي عينها أبجدية الخليل وترتيبه المخرجي لأصوات اللغة وهي: " ع ، ح ، هـ ، خ ، غ / ق ، ك / ج ، ش ، ض / ص ، س ، ز / ط، د ، ت / ظ ، ذ ، ث / ر ، ل ، ن / ف ، ب ، م / و، ا ، ي / الهمزة " .

ولم يكتفِ الصاحب بن عباد باتباع ترتيب الخليل فقط ، بل سعى جاهداً إلى الاستناد على تعليلات الخليل وحججه في ترتيب الأصوات، وقد صرّح بذلك بنفسه قال: " إنّ الهمزة والهاء وإنْ كان لهما التقدّم في المخرج على أخواتهما من الحروف الحلقية، فإنّ الخليل إنّما عدل عن الابتداء بهما ؛ لأنّ الهمزة مهتوتة مضغوطة فإذا رفّه عنها لانت ". (26)

رابعاً: معجم المخصّص لابن سيده (ت458 هـ)

لم يكن مختلفاً في نهجه عن سابقيه فقد رتّب الأصوات على وفق ترتيبهم ولم يشذّ عنهم، (27) فكان بذلك خاتمة العلماء الذين ساروا على خطى الخليل ، وذلك في اعتماد نظام مخارج الأصوات بوصفه أساساً لترتيب المعجم العربي ، فضلاً عن نظام التقليب .

خامساً: جمهرة اللغة لمحمد لن الحسن بن دريد(ت321 هـ)

لم يكن خطّ هذه المدرسة سهلاً ويسيراً ، بل على العكس ولذلك صعُب على الكثير من العلماء السير على خطاها ، حتى أنّ ابن دريد عندما اعتمد نظام الأبنية والتقاليب، وهما جوهر منهج العين ، إذ عرض عن الترتيب المخرجي، ورتّب أصوات العربية ترتيباً ألفبائياً ؛ لأنه أدرك أنّ هذه الطريقة صعبة فأعرض عنها لصعوبتها. (28)

خامساً: معجميون آخرون

فقد تابع الخليل في منهجه إضافة إلى مَن تقدّم من العلماء طائفة من الذين حاولوا الاستدراك على المادّة اللغوية التي جاء بها المعجميون ، من مثل البشتي (ت351هـ) في كتابه (التكملة)، وأبي الأزهر البخاري (ت 325هـ) في كتابه (الحصائل)، والزبيدي (ت379هـ) في (مختصر العين)، فضلاً عن (مختصر العين للخوافيّ) (ت271هـ) الذي سار على نهج التقاليب في ترتيب المواد، كما هو الحال في كتاب العين، مبيّناً اعتماده على المنهج الذي أصّله الخليل؛ لأنّ منهجه أساس المعجمات، إذ يقول: "... فبدأنا بالمضاعف من حرف العين كما فعل الخليل بن أحمد رحمه الله". (29)

فالمعاجم أخذت بالوقوف على كلّ صوت من أصوات العربية لمعرفة خصائصه الصوتية وصفاته سواء أكان ذلك بمعزل عن غيره من الأصوات أم مع غيره، وذلك عن طريق التأليف بين الأصوات لبناء الكلمة العربية ، فكانت نظرتهم إلى الصوت من خلال طبيعته النطقية ، فقد روى ابن كيسان رواية عن الخليل تدلّ على عمق فهمه ودقّة منهجه وطريقته في تناول أصوات العربية إذ يقول: "سمعت من يذكر عن الخليل أنّه قال : لم أبدأ بالهمزة ؛ لأنّها يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف ؛ لأنّها لا تكون في ابتداء كلمة ـ لا اسم ولا فعل ـ إلّا زائدة أو مبدلة ؛ لأنها مهموسة خفية لا صوت لها ، فنزلت إلى الحيّز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصّع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف ". (30)

إنّ هذه الطريقة قد عالجت السمات والتغييرات اللغوية التي تطرأ على الصوت عند إدخاله في اللفظة، فضلاً عن بيان صفات الصوت الأخرى كالهمس والنصّاعة وغير ذلك من المعايير التي تميز كل صوت عن غيره.

وقد تحدّث الخليل عن منهجه الذي اتّفق معه مَنْ سار عليه ، وإنْ اختلفوا معه في بعض الجزئيات ، فعلى الرغم من اختلاف عباراتهم واجتهادهم إلّا أنّ فكرة العمل والاتجاه كانت واحدة ، فقد عمد العلماء إلى بيان مخرج كلّ صوت و إعطاء الصفات التي يتّصف بها فيتميّز بذلك عن غيره وإنْ اشترك معه في المخرج ، فوضعوا الفواصل الدقيقة بين الأصوات متقاربة المخرج أو التي مخرجها واحد، فكانت طريقة الخليل في التذوّق تعتمد على مبدأ الأرفع فالأرفع في الترتيب المخرجي ، وهي طريقة ذوقية قد يختلف فيها علماء الصوت ، إلّا أنَّ هذا التذوق ، على الرغم من أنّه لم

يعتمد على الآلات الحديثة لم يختلف كثيراً عن الدراسات الحديثة، وإنْ كان كثير من الاختلافات يمكن أن يحمل على التطوّر الصوتي للألفاظ.

وإنّ ما جاء به الخليل ومَن تابعه من أفكار صوتية رائدة ترمي في مجملها إلى تفاعل حقيقي بين البنية والصوت ، وإنَّ ترتيب الألفاظ مهما تنوع فإنّه يخضع لانسيابية صوتية تؤدي المخارج فيها أثراً كبيراً في البناء العام للفظة ، وإنّ الصوت هو المنظار الحقيقي لبنية الكلمة .

وقد تناقلت المعاجم الأفكار الصوتية التي قررها الخليل، وخاصّة تلك التي اتبعت منهجه في التأليف، أي على وفق النظام الصوتي، أو التقليبات الهجائية مثل الجمهرة لابن دريد. الذي تعرّض إلى قضايا صوتية كنسج الكلمة وبنائها، والأصوات التي تأتلف والتي لا تأتلف حيث بيّن أنّ القاف والكاف لا تأتلفان في كلمة إلّا بوجود حواجز، وأشار أيضاً إلى أنّ تباعد الحروف في المخرج يؤدّي إلى خفّة البناء خلاف التقارب الصوتي الذي يؤدّي إلى ثقل الكلمة على اللسان.

وتحدث أيضاً عن صفات الأصوات كالرخاوة والإطباق والشدّة، وعرّج على نسبة تردّد الأصوات في اللغة العربية، إذ رأى أنّ أكثر الأصوات استعمالاً في اللغة العربية هي صوت الواو وصوت الياء وآخرها الهاء ، وأقلّها الظاء، ثم الذال، ثم الثاء، ثم الشين، ثم القاف، ثم الخاء، ثم النون، ثم اللام، ثم الراء، ثم الباء، ثم الميم. (31)

ويبدو أنّ إبراهيم أنيس قد انطلق من مثل هذه الفكرة لدراسة روي الشعر، والبحث عن نسبة تردد الأصوات، معلّلا ذلك بكثرة الجهد الذي يتطلبه صوت ما، أو قلته. (32)

المحور الثالث : المصنّفات النحوية والصرفية

تتكئ أغلب أصوات النحو العربي على أسس صوتية ، ومن هذه الأسس والمعايير تفسير ظاهرة الإعراب التي تطرأ على الكلمة في اللغة من جانب صوتي ، فقد حوت المصنّفات النحوية الصرفية بين ثناياها كثيراً من ملامح التراث الصوتي العربي، والمطلع على المصنّفات النحوية والصرفية يجدها تضمّ بين طيّاتها ملامح التراث الصوتي العربي، ويجد كذلك بأنّها قد أسهبت في الحديث عن المنحى الفسيولوجي المرتبط بالكيفية التي تتمّ عبرها تكوّن الأصوات، وما تؤدّيه من دور فاعل في تنوّع صفات الأصوات ، إذ أفرد النحاة أبواباً خاصّة في كتبهم للدراسة الصوتية ، وخاصة حين تعرضهم لباب الإدغام أو الحديث عن قواعد الإعلال والإبدال .

ويتعرّض سيبويه موضوع الإدغام إلى الأصوات فيقول: " هذا باب عدد الحروف العربية، ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها، فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام،

والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو". (33)

ويضع سيبويه ستة عشر مخرجاً لحروف العربية، وما يلفت الانتباه هو أنّه يضع الهمزة والألف في مخرج أقصى الحلق وفي وسطه العين والحاء، (34) وهو يخالف في ذلك الخليل الذي جعل العين والحاء أقصى الحلق، وجعل الهمزة مع الواو والألف والياء .

ويتناول سيبويه كذلك صفات الأصوات من جهر وهمس وشدّة ورخاوة ومنحرفة، ومكرّرة ولينة وهاوية ومطبقة ومنفتحة، (35) ويختم ذلك بقوله: " وإنّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالاً لما تدغم، وما تخفيه وهو بِزِنَةِ المتحرك". (36)

وقد كانت البداية بسيبويه (ت180هـ) الذي انماز تصنيفه بالشمولية ودقّة التبويب والتصنيف، وهذا ما جعل المؤلّفات العربية تتناقله ، غير أنّ معلوماته أخذها بلا شكّ عن أستاذه الخليل ، ومِن الذين تناولوا الصوت بالدرس والتحليل من بعد سيبويه ، المُبرِّد (ت285هـ) ، والزجاج (ت311 هـ) ، وابن السراج (ت316 هـ)، والزجاجي (ت337هـ) ، والزمخشري (ت538هـ) ، وابن يعيش(ت643هـ) ، والرضي الأستراباذي (ت680هـ) ، وابن عصفور (ت699هـ) ، والأشموني (ت911هـ) ، والسيوطي (ت911هـ) وغيرهم من النحاة الذين ساروا على خطّ هذه المدرسة .

فالأثر الذي أحدثه سيبويه في الدراسات الصوتية كان كبيراً حتى أصبحت مادّته الصوتية التراث الأوحد للعلماء الذين جاؤوا من بعده ، فنحن نجد أنّ أبا العباس المبرّد (ت285هـ) يسير على خطى سيبويه في ترتيب مادته الصوتية ويجعلها الأساس الذي يرتكز عليه في الحديث عن الجانب الصوتي ، وعلى الرغم من محاولته إضافة التوضيحات بخاصّة ما يتعلّق بالمصطلح الصوتي، بيد أنّه ظلّ أسيراً لعبارات سيبويه، (37) وكذلك فعل ابن جنّي (ت392هـ)، إذ أعرض عن مادّة الخليل الصوتية واستند إلى مادة سيبويه متخذا من خطّ هذه المدرسة النحوية اتجاهاً حدّد به مسار مادته الصوتية في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) ، والنحاة الذين ساروا على هذا الخطّ كُثر ، فكان حديث سيبويه عن المخارج والصفات المدخل الواسع للدراسة الصوتية عند علماء النحو ، حتى أنّ بعض العلماء كان ينقل المادّة الصوتية من سيبويه كما هي ، ولم يجرؤ على التغيير فيها كما هو الحال عند ابن السراج (ت316 هـ). (38)

والواقع أنّه لم يخل مصنف في النحو من التعرّض إلى القضايا الصوتية، وهذا يرجع للعلاقة التي تربط العِلْمين، ولقد قدّم بعض النحاة القدامى الشرح اللغوي للحركات متّصلاً بالجانب الفسيولوجي والكيفية التي يتمّ بها نطقها، ومن أولئك

أبو القاسم الزجاجي حيث يقول في باب القول في معنى الرفع والنصّب والجرّ من طريق اللغة : " فنسبوا الرفع كلّه إلى حركة الرفع لأنّ المتكلّم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى ويجمع بين شفتيه وجعل ما كان منه بغير حركة موسوماً أيضاً بسمة الحركة ؛ لأنّها هي الأصل . والمتكلّم بالكلمة المنصّوبة يفتح فاه، فيبين حنكه الأسفل من الأعلى، فيبين للناظر إليه كأنّه قد نصّبه لإبانة أحدهما عن صاحبه، وأمّا الجرّ.. ومن سمّاه منهم من الكوفيين خفضاً، فإنّهم فسّروه نحو تفسير الرفع والنصّب لانخفاض الحنك الأسفل عند النطق به، وميله إلى إحدى الجهتين ، وأمّا الجزم فأصله القطع.. فكأنّ معنى الجزم قطع الحركة عن الكلمة.. وكأنّ المازني يقول: الجزم قطع الإعراب". (39)

وأشارت تلك المصنّفات ولاسيّما في الميدان الصرفي إلى كثير من الوظائف الصوتية المتعلّقة بتجاور اللبنات المكونة للصيغة، ودراسة التغيرات التي تطرأ على بنية الكلمة العربية ، سواء تعلّق الأمر في تصريفات الكلمة من إفراد وتثنية وجمع، أم ما يتعلّق بالتذكير والتأنيث، أو التصغير والمبالغة، وغيرها من التصريفات والتحولات التي تطرأ على بنية الكلمة، مفردة كانت أم وقعت في درج الكلام، وما يتعلق بها من وصل وفصلٍ ، أو إدغامٍ وما شابه ذلك. (40)

ومن المصادر الصرفية التي عالجت مباحث صوتية متعددة كالإعلال والإبدال والقلب والإدغام، وغيرها، (الشافية) لابن الحاجب (ت646هـ). وبذلك عدت المؤلفات النحوية الصرفية من المصادر الصوتية العربية .

المحور الرابع : المصنّفات الأدبية

لم تكن المصنّفات الأدبية بعيدة عن مناقشة القضايا الصوتية؛ لاسيّما ما تعلّق منها بالجانب الوظيفي ، أو الجانب النطقي، وخير مثال على هذه المصنّفات كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ (255هـ) ، لقد تعرّض إلى تعريف الصوت حيث قال : "هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت". (41)

ويتناول موضوعاً ذا صلة وثيقة بالأمراض الكلامية أو العيوب النطقية التي أصبحت علماً مستقلاً في العصر الحديث لما له من مختصّين ومعاهد ومستشفيات تعالج فيها هذه الأمراض. فهو يردّ بعضها إلى السرعة كاللفف أي أنْ يدخل المتكلّم الكلام بعضه في بعض، وبعضها الآخر إلى عيوب عضوية كسقوط الأسنان، (42) فيحدث صفير في الكلام وبالتالي لا تقبله الأذن .

إنّ عيوب النطق لا تصلح أنْ تكوّن حكماً عاماً في مجال الدراسات الصوتية، وكأنّ بعض العلماء أشار إليها" فمن خلال العيوب الصوتية كاللثغة وغيرها يتوصّل إلى دراسة التقطيع الوظيفي، فالألثغ مثلاً عندما يقطع كلمة "مضر" يقول "مضي" بإخراج الراء من مخرج الياء،

لنقصان في آلة النطق، وعجزه في أداء الصوت، مع أنّه يقصد (مضر)؛ لأنّ السامع الذي يسمع مضي يفطن للعاهة، ويصحّح الخطأ الصوتي، ويفهم كلامه بالاعتماد على التقطيع المألوف". (43)

وذكر أنّ الأصوات التي تدخلها اللثغة هي (القاف ، والسين ، واللام ، والراء) فتقلب القاف إلى طاء، والسين إلى ثاء، واللام إلى ياء أو كاف، والراء إلى غين أو ياء، وتحدّث الجاحظ عن (اللكنة) التي تظهر في كلام الأعجمي الذي ينطق باللغة العربية كنطق السندي الجيم زايا، والنبطي الزاي سيناً والعين همزة ، وأشار أيضاً إلى البناء الصوتي للكلمة العربية، وإلى ما يأتلف في نسجها وما لا يأتلف، أي ما عرف بالتنافر والتلاؤم، حيث قال: " فأما في افتراق الحروف، فإنّ الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف، ولا الطاء.. بتقديم، ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين والضاد ولا الذال... ". (44)

المحور الخامس : مصنّفات البلاغة وإعجاز القرآن

لما كانت العلاقة جد وثيقة بين البلاغة والأصوات في الدراسات اللغوية قديمها وحديثها ، فلا غرو أن تضم المصنّفات البلاغية وإعجاز القرآن في فصولها حديثاً عن الأصوات، ومناقشات ترتبط بصميم الميدانين الفوناتيكي والفونولوجي، وخاصة حين تعرضها للفصاحة وما يرتبط بتنافر وائتلاف الحروف.

وممّا يمكن الاستشهاد به، على سبيل التوضيح لا الحصر جميع ما ورد في المصنّفات العديدة، ما جاء في (سرّ الفصاحة) لابن سنان الخفاجي (ت466هـ) الذي يرى أنّه كلّما تباعدت مخارج حروف اللفظة حسن وقعها على السمع، وكلّما تقاربت قبح، فذكر ذلك في قوله: " إنَّ الحروف وهي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر. ولا شكّ في أنّ الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه، كانت العلّة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة في العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة". (45)

وقد وازن أبو علي الرمّاني(ت384هـ) في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) بين نصّ قرآني، وبين قول من مأثور العرب يتعلقان بقضية القصاص في القتل من خلال قوله تعالى:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، (46) وقول العرب: (القتل أنفى للقتل)؛ ليصل إلى نتيجة مفادها أنّ توافق الحروف في مخارجها يُدرك بالحسّ وموجود باللفظ، فقد وجد أنّ الانتقال من صوت الفاء إلى صوت اللام في قوله (في

القِصاص) أعدل وأيسر من الانتقال من اللام إلى الهمزة في قوله (القتل أنفى) ، فضلاً عن أنّ الخروج من صوت الصاد إلى صوت الحاء (القِصاص حياة) أيسر وأعدل من الألف إلى اللام في (أنفى القتل) .

وقد تناول أيضاً التأليف اللفظي، وقسّمه إلى متنافر ومتلائم، وذكر أنّ السبب في التلاؤم مردّه إلى تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشدّ تلاؤماً، وأمّا التنافر فسببه مثلما ذكر الخليل يعود إلى البعد أو القرب الشديد بين مخارج الأصوات، فإذا بعدت الأصوات كانت بمنزلة الطفر، وإذا قربت القرب الشديد كانت بمنزلة المشي المقيّد، لأنّه بمنزلة رفع اللسان وردّه إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال. (47)

وقد ضمّ كتاب (إعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني(ت 403هـ) كثيراً من المباحث الصوتية، بقصد تحليل آيات القرآن، وبيان أوجه إعجازه، فذكر ما يتعلّق بفواتح السور، وسرّ اختيار حروف معيّنة لها، بقوله: " إنّ الحروف التي بُني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصّف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً، ليدلّ بالمذكور على غيره، وليعرفوا أنّ هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظّمون بها كلامهم، والذي تنقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها- أقسام، نحن ذاكروها: فمن ذلك أنّهم قسّموها إلى حروف مهموسة، وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة وهي الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفاء، والتاء والصاد والسين، وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة ، وقد عرفنا أنّ نصّف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصّف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان". (48)

ويقول الباقلاني عن البدء بحروف (ألم): " لأنّ الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعاً، واللام متوسّطة، والميم متطرّفة، لأنّها تأخذ في الشفة، فنبّه بذكرها على غيرها من الحروف، وبيّن أنّه إنّما أتاهم بكل منظوم ممّا يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين ويشبه أن يكون التصنيف وقع في هذه الحروف دون الألف، لأنّ الألف قد تلغى، وقد تقع الهمزة وهي موقعاً واحداً". (49)

إلى غير ذلك من النماذج ذات الصلة بالميدان الصوتي والتي يجدها الدارس في هذا المصدر القيّم .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ما ذكره السكّاكي (ت626هـ) في مفتاح العلوم) الذي يعدّ مصدراً بلاغياً ولكنّه لم يغفل الجانب الصوتي، إذ بدأ به كتابه، فعرّض إلى مخارج الحروف وصفاتها،

وممّا يثير الإعجاب أنّه رسم جهاز النطق ووضع ضمنه مخرج كلّ حرف، على الرغم من أنّه لم تكن لديه الأجهزة العلمية التي يستعين بها لرسمه. (50)

وهكذا حوت تلك المصادر البلاغية وكتب إعجاز القرآن مجالاً قيّما للدراسة الصوتية، يمكن للدارس الإفادة منها لفهم كثير من أسرار اللغة العربية .

المحور السادس : مصنّفات التجويد والتلاوة

تعدّ مصنّفات التجويد من أهمّ مصادر التراث الصوتي، بل من منابعه الأولى التي أدّت دوراً مهماً في الحفاظ على النطق السليم لأصوات اللغة العربية، فقد كان علماء القراءات من أحرص القوم على تناول المباحث الصوتية في مؤلفاتهم التي ضمّت كثيراً من الميزات والمصطلحات الصوتية، مثل الإشمام والإشباع والاختلاس والمدّ، والتفخيم والترقيق ونحوها، كما وضعوا رموزاً كتابية تمثلها. (51)

وجمع هذا التناول للمادة الصوتية بين النظرية والتطبيق " فعرض لمخارج الحروف وصفاتها وتقسيماتها وفق ذلك، والملامح الأدائية لها في السياقات المختلفة والتجاورات المتنوعة ". (52)

وما يعرف عن مراحلها الأولى هو أنّ أوّل من استخدم هذا المصطلح قريباً من معناه هو ابن مسعود الصحابي الذي كان ينصّح المسلمين بقوله:" جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات "(53) ، ويروى أنّه كان يتفنّن في تجويده وترتيله، وأنّ الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان يجهش بالبكاء حين يسمع القرآن الكريم بترتيل ابن مسعود. (54)

ومن الكتب المهمّة التي وصلتنا في هذا المجال: (الحجّة في القراءات السبع) لابن خالويه و(الحجّة في علل القراءات السبع) لأبي علي الفارسي (ت 337هـ) ، و(المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها) لابن جنّي (ت392هـ) ، وما حملته هذه الكتب من تراثٍ صوتيّ يوضّح أنّهم استعملوا المصطلحات الصوتية كـ (الإدغام ، والمماثلة، والإتباع ، والإمالة ، إلخ)، فقد اهتمّوا بالجوانب التطبيقية للمصطلح الصوتي في القراءات القرآنية ، من خلال ضبط مخارج الحروف وتقاربها، ورأوا بأنّ هذه المصطلحات تدلّ على مرونة النظام الصوتي.

المحور السابع : المصنّفات الفلسفية

لقد أسهم النتاج الفلسفي العربي في بناء صرح الفكر العربي ؛ لما قدّمه الفلاسفة العرب من نتاج فكري أثرى الفكر العربي خاصة والفكر الإنساني عامة، فقد انفرد الفلاسفة العرب في طبيعة البحث الفلسفي وعمق الرؤية ، وقد أسهموا إسهاماً فاعلاً في المجالات البحثية ، ولا سيّما البحث اللغوي الذي كان أحد العلوم التي أغنوها بدراساتهم المعمقة والدقيقة التي شغلت ميداناً واسعاً على مدى عصور طويلة ، ويعد دورهم في مناقشة ودراسة القضايا الصوتية دوراً مهمّاً كبيراً ومؤثراً في تلك القضايا ، فقد اشتملت مصنّفاتهم

الفلسفية على آراء دقيقة اعتنت بدراسة الأصوات وتقسيمها وعلاقتها بالعلوم الفلسفية والتشريحية، التي شغلت مساحة زمنية كبيرة.

وعلى الرغم من تعدُّد العلماء الفلاسفة وتوزّعهم على حقبٍ طويلة ، لكنّ دراساتهم ونتاجاتهم لم تستمل نتاجاتهم اهتمام الدارسين اللغويين وتحرّك البحث فيها ، اللهمّ إلّا القليل ممّن حاول دراسة الجوانب اللغوية عند علمائها ، ومن بينها الجانب الصوتي الذي اهتمّوا به كثيراً ؛ إذ لم يكتفِ الفلاسفة ، على وجه العموم ، بدراسة الأصوات من زاوية واحدة بل تعدّدت زوايا النظر وتنوّعت ، ومن مصنّفاتهم التي تناولت الصوت بالدرس والتحليل (الموسيقى الكبير) لأبي نصّر الفارابيّ (ت339هـ) ، (الجماهر في معرفة الجواهر) لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت440هـ) ، (رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا) لإخوان الصفا (ق4هـ) ، (أسباب حدوث الحروف) علي بن الحسين ابن سينا (ت 428 هـ) وغيرها من المصنّفات .

فنحن نجدهم يتحدّثون عن طبيعة الصوت اللغوي وكيفية انتقاله عن طريق تموّج الهواء ،كما هو الأمر عند الفارابي وإخوان الصفا وابن سينا ، فقد شملت دراسة الفارابيّ الصوتية كثير من الظواهر ابتداءً من علم الأصوات الطبيعي الذي حاول فيه أن يقف على ماهيّة الصوت ومصدره وكيفية انتقاله وكيفية السمعية وصولاً إلى دراسة التنغيم وأقسامه وخصائصه، فقد أثبت الفارابي في كتابه (الموسيقى الكبير) أنّ هناك مفاهيم ومصطلحات أسست للمصطلح الفيزيائي للصوت اللغوي وغير اللغوي، حينما تكلّم عن الصوت ومصدره وأسباب حدوثه ، وهذا ما يؤكّده حسّه الموسيقي الذي يتذوق الصوت ، ثمّ ينتقل الفارابيّ في دراسته إلى علم الأصوات النطقي متحدّثاً عن أعضاء النطق ، وقد حاول الفارابيّ أنْ يتوسّع في حديثه فتحدّث عن طبيعة الحروف وخصائصها، فضلاً عن حديثه عن المقطع الصوتي والنغم، فقد فرّق بين الصوت والحرف بوصف الصوت هو كلّ ما يُسمع، أمّا الحرف فهو المادّة اللغوية التي تنتج الكلام الإنساني، إذ قال " ومن فصول الأصوات الفصول التي تصيّر الأصوات حروفا". (55)

وقد ذهب الفارابي إلى تحديد سبب حدوث الصوت بقوله : "هو مماسّة الجسم الصلب جسماً آخر صلباً مزاح له عن حركته ". (56)

ولم يختلف إخوان الصفا عمّن سبقهم في دراستهم اللغوية إذ بحثوا في طبيعة اللغة وكيفية التصويت وحدوث الصوت وطبيعة انتقاله ، وإشارتهم إلى العملية السمعية وكيفية استقبال الصوت، وإن كانوا أقلّ تفصيلاً ممن سبقهم وحتى من لحقهم كابن سينا. (57)

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدرس الصوتي العربي قد توسّعت دراسته على يد الفيلسوف العربي (ابن سينا)، فقد كانت رسالته (أسباب

حدوث الحروف) خير ما يدلُّ على هذا الأمر فقد درس فيها أصوات اللغة العربية دراسة مميزة وفريدة مشيراً إلى أسبابها وطبيعتها وانتقالها في الأوساط واصفاً أجزاء النطق فيها، وأفضل ما انمازت به دراسته الصوتية هذه هو أنّها تنسجم إلى حدّ ما مع ما وصل إليه علماء الصوت المحدثين المهتمّين بالدراسات الصوتية، كما تمتاز هذه الدراسة الصوتية التي قدّمها ابن سينا بأنّها شاملة لكلّ الجوانب اللغوية ، حين عرّج على مخارج الحروف فيها، والجوانب الفيزيائية عبر إشارته إلى طبيعة الصوت وأسباب حدوثه والجوانب الطبيعية ، إذ يربط فيها بين أصوات الطبيعة وأصوات الحروف.

ولم يبتعد البيروني(ت440هـ)، وابن باجه التّجيبي (ت533هـ)، وابن رشد(ت595هـ) في دراستهم للغة عموما والأصوات على وجه الخصوص عن دراسة من سبقهم من الفلاسفة المسلمين إذ ساروا على خطّهم في الدراسة متناولين الطبيعة الفيزيائية للأصوات وكيفية حدوث الصوت وانتقاله مكوّنين بذلك مدرسة صوتية ذات ميل فيزيائي في دراستها للصوت وهو الأمر الذي جعلها واضحة المعالم ومتميّزة الخصائص والمنهج .

نتائج البحث

1_ كما هي الحال في العلوم العربية على اختلافها كان القرآن الكريم الباعث الأول للاهتمام بالصوت.

2_ لا يوجد للدراسة الصوتية العربية مصنف مستقل لهذه الدراسة سوى (سّر صناعة الإعراب) لابن جنّي (ت392هـ) الذي وضع فيه أول مصطلح خاص بهذا العلم ، و(أسباب حدوث الحروف) لابن سينا (ت428هـ) ، وهذا تأخير عن ركب العلوم العربية التي نشأت في بدايات التقويم الهجري .

3_ تناثرت الدراسة الصوتية في المصنّفات المعجمية ، والنحوية ، والصرفية ، والبلاغية ، والتجويدية ، وإعجاز القرآن .

4_العقلية الفذة للخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175هـ) مكّنته من ابتداع معجم معتمداً على مخارج الحروف ، وسار على نهجه علماء ألّفوا معجمات متّبعين المنهج نفسه .

5_ من حسنات الخليل سيبويه الذي وضع في كتابه دراسة صوتية دقيقة وشاملة ، وهذا يعني أنّه توجد بدايات للدراسة الصوتية قبل سيبويه ثمّ نضجت على يده ، وكان له أتباع من علماء النحو كالمبرّد _ مثلاً _ لم يخرجوا عمّا جاء به من دراسة صوتية.

6_ يُعدّ الإعلال والإبدال من الركائز الرئيسة التي تقوم عليها الدراسات الصرفية ، وفي الوقت نفسه هي دراسة صوتية بحتة .

7_ أبرز ما تناولته المصنّفات الأدبية هو الجانب النطقي من لثغة وغيرها .

8_ إنّ فنون البلاغة من سجع وجناس وطباق وغيرها لها الأثر المباشر في النفوس، ودراستها

ملازمة لدراسة أصوات الألفاظ المناسبة للمعنى المراد .

9_ أكثر ما اعتنى به علماء التجويد من أجل النطق السليم للحروف العربية هي الدراسة الصوتية ، فكانت دراساتهم فكانوا من أوائل من اهتمّ بهذه الدراسة ، ووضعوا مصطلحات صوتية مثل : الإشمام ، والإشباع ، والتفخيم ، والترقيق ، وغيرها .

10_ امتازت الدراسة الصوتية عند الفلاسفة بعمق البحث وتنوّعه ، فتناولوا كلّ ما له علاقة بالصوت حتى أعضاء النطق والحيز الناقل للصوت وغيره .

الهوامش

(1) ينظر : أصوات اللغة العربية : د. عبد الغفار هلال حامد، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، مصر، ط2، 1988 ص14 .

(2) المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي ، د. عبد المنعم عبد الله محمد، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، مصر ، ط1، 1988 ص 17.

(3) أصوات اللغة العربية مصدر سابق ص 14.

(4) لسان العرب ، العلامة ابن منظور (ت 711هـ) ، تحقيق: عبدالله علي الكبير ، و محمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف إحياء التراث العربي ، مادة : (صوت) المجلد الرابع: ص2521 .

(5) ينظر : كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق : د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة ، ط2، إيران ، 1409 هـ ، : ج7 ص 146.

(6) المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق وضبط : محمد سعيد كيلاني عدنان داوود ، منشورات طليعة النور ، قم ، ط1 ، 1426هـ ص 288.

(7) المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي مصدر سابق ، ص 18.

(8) سر صناعة الإعراب : أبو الفتح عثمان بن جنّي ، تحقيق : د. حسن هنداوي ، القاهرة ، مصر: 63/1 .

(9) ينظر: أصوات اللغة العربية مصدر سابق ص 10.

(10) سر صناعة الإعراب مصدر سابق ص10 .

(11) ينظر : سرّ صناعة الإعراب ص35-36.

(12) أسباب حدوث الحروف : علي الحسيني ابن سينا، راجعه وقدم له : طه عبد الرؤوف سعد 1398هـ/ 1978م ، مكتبة الكليات الأزهرية ص 8 .

(13) أسباب حدوث الحروف مصدر سابق ص 10.

(14) الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، 1975، ص: : 137.

(15) ينظر :العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط2 1 / ص58 .

(16) ينظر :المصدر نفسه : 1 /ص 10 .

(17) ينظر : العين المصدر السابق : 1 /ص 47 .

(18) ينظر : المصدر السابق :1/ص 48 .

(19) أصوات اللغة العربية مصدر سابق ص 9 .

(20) العين مصدر سابق : 1 /ص 57 .

(21) ينظر : المفردات مصدر سابق ص 288.

(22)- العين مصدر سابق : 1 /ص 57 .

(23) ينظر: الأصوات اللغوية ، مصدر سابق، ص: 104-105.

(24) التهذيب في اللغة للأزهري (حياته ومنهجه) ، تحقيق وتقديم : عبد السلام محمد هارون ، مراجعة : محمد علي النجار ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، عام 1964، ص21.

(25) المحيط في اللغة للصاحب بن عبّاد، تحقيق : محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب – بيروت ، ط1 1994 ص58–59 ، وينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها : محمد الأنطاكي ، مكتبة دار الشرق بيروت، ط1 ، 1972 م :1/ص 60 .

(26) المصدران السابقان: ص60، 1 /ص 64 .

(27) ينظر : المخصص : أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده (ت458هـ) ، المطبعة الأميرية ، مصر، ط1 ، 1316هـ :1/ص20 .

(28) جمهرة اللغة لمحمد بن الحسن بن دريد (ت321هـ) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف ، حيدر آباد ، ط1 ، 1344هـ :1/ص6 .

(29) مختصر العين، لابن الحسن علي بن القاسم الخوافيّ، أطروحة دكتوراه ، تحقيق: سوسن بنت عبدالله حمد الهنديّ، إشراف: عليان محمد الحازمي، نُشرت عام 1420هـ ، 1999م. جامعة أمّ القرى ـ مكة المكرّمة، ص24.

(30) المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي (ت911هـ) ، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1، (د . ت) : 1 / 90

(31) ينظر: البحث اللغوي عند العرب : د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر، ط4، 1982: 93.

(32) ينظر: موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس ، القاهرة ، ط4 ، 1972ص 248.

(33) الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت180هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط2 ، 1982: 4 /ص 431.

(34) المصدر نفسه : 4 /ص 433.

(35) المصدر نفسه : 4 /ص 435- 436.

(36) المصدر نفسه : 4 /ص 436 .

(37) ينظر : المقتضب : أبو العباس المبرد (285هـ) ، تحقيق : عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب، بيروت (د . ت) :1 /ص 197 .

(38) ينظر : الأصول في النحو : أبو بكر بن السراج (ت 316هـ) ، تحقيق : د . عبد الحسين الفتلي مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط3 ، 1988م : 3 /ص 400 .

(39) الإيضاح في علل النحو : أبو القاسم الزجاجي، تحقيق : مازن المبارك ، مكتبة دار العروبة، القاهرة ، 1959 ص93-94.

(40)- ينظر :المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي مصدر سابق ص 19.

(41) البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3 : 1 /ص 79.

(42) المصدر نفسه : 1 /ص 69.

(43) النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال (البيان والتبيين) : محمد الصغير بنّاني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1983ص 112.

(44) البيان والتبيين مصدر سابق : 1 /ص 79 .

(45) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) ، شرح : عبد المتعال الصعيدي ، محمد علي صبيح وأولاده، الأزهر، القاهرة، 1969ص 54.

(46) البقرة آية 179.

(47) ينظر: أصوات اللغة العربية مصدر سابق ص 13.

(48) إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت403 هـ) ، تحقيق : السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1963ص 44.

(49) المصدر نفسه ص 46.

(50) ينظر : مفتاح العلوم: السكّاكي ، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه ، نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط1، 1983، ط2، 1987 ص 11، 12، 13 .

(51) ينظر : علم اللغة : د. محمود السعران ، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر ، ص 101.

(52) المقطع الصوتي مصدر سابق ص 21.

(53) البحث اللغوي عند العرب ،د. أحمد مختار عمر مصدر سابق ص 93.

(54) ينظر :المصدر نفسه ص 93.

(55) الموسيقى الكبير للفارابي ص: 1072، وينظر : البحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي : رجاء عبد الرزاق الرفاعي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، بغداد 1992م ، ص 30-31 .

(56) الموسيقى الكبير : أبو نصّر الفارابي (ت339هـ) : تحقيق : غطاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي للطباعة ، القاهرة (د . ت)ص 212 .

(57) ينظر : البحث اللساني عند اخوان الصفا وخلان الوفا : د. علاء جبر محمد ، بحث منشور في مجلة آداب المستنصّرية ، العدد: 47/ 2008 ص 12.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

❖ أسباب حدوث الحروف : علي الحسيني ابن سينا، راجعه وقدم له : طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية، 1398هـ/ 1978م .

❖ أصوات اللغة العربية : د. عبد الغفار هلال حامد، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، مصر، ط2، 1988 .

❖ الأصوات اللغوية : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصدرية ، ط5 ، 1975 .

❖ الأصول في النحو : أبو بكر بن السراج (ت 316هـ) ، تحقيق : د . عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط3 ، 1988م .

❖ إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت403 هـ) ، تحقيق : السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1963.

❖ الإيضاح في علل النحو : أبو القاسم الزجاجي، تحقيق : مازن المبارك ، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1959 .

❖ البحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي : رجاء عبد الرزاق الرفاعي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، بغداد 1992م .

❖ البحث اللساني عند إخوان الصفا وخلان الوفا : د. علاء جبر محمد ، بحث منشور في مجلة آداب المستنصّرية، العدد: 47/ 2008 .

❖ البحث اللغوي عند العرب : د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر، ط4، 1982.

❖ البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3 .

❖ التهذيب في اللغة للأزهري (حياته ومنهجه) ، تحقيق وتقديم : عبد السلام محمد هارون ، مراجعة : محمد علي النجار ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، عام 1964

❖ الجمهرة : محمد بن الحسن بن دريد (ت321هـ) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف ، حيدر آباد ، ط1 ، 1344هـ .

❖ سرّ الفصاحة : ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) ، شرح : عبد المتعال الصعيدي ، محمد علي صبيح وأولاده، الأزهر، القاهرة، 1969: 54.

- سرّ صناعة الإعراب : أبو الفتح عثمان بن جنّي ، تحقيق : د. حسن هنداوي ، القاهرة ، مصر.
- علم اللغة : د. محمود السعران ، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر .
- الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت180هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط2 ، 1982.
- كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق : د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة ، ط2، إيران ، 1409 هـ .
- لسان العرب ، العلامة ابن منظور (ت 711هـ) ، طبعة ملوّنة ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي _ بيروت ، ط3 .
- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها : محمد الأنطاكي ، مكتبة دار الشرق بيروت، ط1 ، 1972 م .
- المحيط في اللغة للصاحب بن عبّاد، تحقيق : محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب – بيروت ، ط1 1994.
- مختصر العين، لابن الحسن علي بن القاسم الخوافيّ، أطروحة دكتوراه ، تحقيق: سوسن بنت عبدالله حمد الهنديّ، إشراف: عليان محمد الحازمي، نُشرت عام 1420هـ ، 1999م. جامعة أمّ القرى ـ مكة المكرّمة .
- المخصّص : أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده (ت458هـ) ، المطبعة الأميرية ، مصر، ط1 ، 1316هـ .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي (ت911هـ) ، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1، (د . ت) .
- مفتاح العلوم : السكّاكي ، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه ، نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط1، 1983، ط2، 1987 .
- المفردات ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : عدنان داوود ، منشورات طليعة النور ، قم ، ط1 ، 1426هـ .
- المقتضب: أبو العباس المبرد (285هـ) ، تحقيق: عبد الخالق عظيمه، عالم الكتب، بيروت (د . ت) .
- المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي : د. عبد المنعم عبد الله محمد، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، مصر ، ط1، 1988م.
- موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس ، القاهرة ، ط4 ، 1972.
- الموسيقى الكبير : أبو نصّر الفارابي (ت339هـ) : تحقيق : غطاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي للطباعة ، القاهرة (د . ت) .
- النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال (البيان والتبيين) : محمد الصغير بنّاني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1983 .